د. يعقوب يوسف الغنيم

الأزمنة والأمكنة

المجلد الخامس

إلى غير ذلك.

وللبوصيري قصيدة عالية القدر، مشهورة بين الناس قالها في مدح رسول الله ﷺ، وقد اطلق عليها اسم: البردة، وإذا قارنا قصيدته هذه بقصائده الأخرى التي أشرنا إلى موضوعاتها، وجدنا الفرق كبيرًا ووجدنا أن دلالتها على مستواه الشعري تفوق بكثير ما كان عليه شعره الآخر. انظر إلى بعض أبيات من قصيدة بعث بها إلى أحد وزراء عصره يشكو فيها حاله وحال أسرته، وما هم فيه من الضيق المعيشي:

واقبلَ العيدُ وما عندهم
قَمْحٌ ولا بُرٌّ ولا فطْرَهْ
فارحمهمو إن عاينوا كعكةً
في كفِ طفلٍ أو رأوا تمْره
تَشْخَصُ ابصارهمو نحوها
بشَهْقَةٍ تَتْبَعُها زفْره

وقبل أن ننتقل إلى الحديث عن القصيدة التي نريد أن نتحدث عنها فإنه يجدر بنا أن نقول:

كان للبوصيري اهتمام بالقصائد التي يذكر بها رسول الله ﷺ ومنها:

أمن تذكُّر جيران بذي سَلَمٍ
مزجتَ دمعًا جرى من مُقلةٍ بدمِ

ومنها:

كيف ترقى رُقيُّك الأنبياءُ
يا سماءً ما طاوَلَتْها سماءُ

ومنها قصيدة عارض فيها الشاعر الصحابي كعب بن زهير بن أبي سلمى المشهور التي مطلعها:

بانتْ سعادُ فقلبي اليوم متبولُ
متيمٌ إثرها لم يُفْدَ مكبولُ

وقد قال البوصيري يعارضها:

إلى متى أنتَ باللَّذاتِ مشغولُ
وأنتَ عن كلِّ ما قدمتَ مسؤولُ

ولد محمد بن سعيد البوصيري في سنة ٦٠٨ للهجرة (١٢١٢م) وتوفي سنة ٦٩٦ للهجرة (١٢٩٦م). وله ديوان شعر مطبوع ومتداول بين الناس.

اكتسبت قصيدة البوصيري التي سماها (البردة) شهرة واسعة وعارضها عدد كبير من الشعراء حرصوا على صياغة قصائد تكون على منوالها لفرط ما وجدوا فيها من جمال في المعنى ونسق جميل في اللفظ. ومن هؤلاء أمير الشعراء أحمد

شوقي الذي لم يعارض هذه القصيدة وحدها بل عارض قصيدة البوصيري الثانية التي ذكرناها قبل قليل فجاء مطلع قصيدته كالتالي:

وُلِـــدَ الـهـدى فـالـكـائـنـاتُ ضـيـاءُ
وَفـــمُ الـــزمـــانِ تـبـسُّـمٌ وثـنـاءُ
الـــروحُ والمـــلأُ المـلائِـكُ حـولَـهُ
لـلـدِّيـنِ والـدُّنـيـا بـه بُـشـراءُ

أما قصيدته الأولى فهي:

ريمٌ على القاعِ بينَ البانِ والعَلَمِ
أحلَّ سفكَ دمي في الأشهرِ الحُرُمِ
رمى القضاءُ بعيني جُؤذَرٍ أسدًا
يا ساكنَ القاع أدرك ساكنَ العَلَمِ

وكلتا القصيدتين من القصائد الطوال، وكلتاهما مليئة بالمعاني الرائعة والعبارات الرائقة، وقد أجمعتا على مدح رسول الله ﷺ، كما فعل البوصيري بقصيدتيه، ولعل مما ينبغي أن نذكره هنا أن قصيدتي شوقي قد نالتا شهرة كبيرة بعد أن غنتهما بأداء رائع كوكب الشرق أم كلثوم فخلّدتهما، ولا نزال نستمع إليهما في المناسبات الدينية المختلفة.

وشعر أمير الشعراء كله معجب، يسر النفوس وإضافة إلى ما فيه من شعر عاطفي غزير الأحاسيس، فإن فيه تأريخًا لكثير من الحوادث التي مرت بمصر والمنطقة العربية والإسلامية.

أمير الشعراء أحمد شوقي بن علي أحمد شوقي، شاعر مشهور، لا تزال قصائده تتردد على أذهاننا على الرغم من مضي مدة على وفاته، وديوانه

«الشوقيات» ومسرحياته الشعرية على كل لسان، وكان جيلنا يسعد بسماع شعره، ويعتبره من الشعراء العرب المجددين بل إنه قد أحيا الشعر في عصره، على الرغم من وجود عدد من الأدباء دفعتهم الغيرة إلى انتقاده ومهاجمة شعره، لم يمنعهم من ذلك إبداعه الفني العجيب، ولا إنتاجه الغزير الذي تطرق فيه إلى أمور شتى.

نقل عنه خير الدين الزركلي في كتابه «الأعلام» قوله: «سمعت أبي يُرَدِّدُ أنّ أصلنا إلى الأكراد فالعرب» وكان قد نشأ في ظل البيت المالك في مصر، وتعلم به ثم أرسله الخديوي توفيق في سنة ١٨٨٧م إلى فرنسا لدراسة الحقوق، وهناك اطلع على الأدب الفرنسي اطلاع رجل راغب في المعرفة تواقًا إلى الأدب والثقافة بصفة عامة، والشعر بصفة خاصة. وعندما عاد إلى مصر في سنة ١٨٩١م صار رئيسًا للقسم الإفرنجي في ديوان الخديوي عباس حلمي وعندما نُحِّيَ هذا عن منصبه طلب من أحمد شوقي أن يختار له منفى خارج مصر فسار إلى أسبانيا في سنة ١٩١٥م وعاد في سنة ١٩١٩م بعد الحرب العالمية الأولى وفي أسبانيا قال قصائد كثيرة يتشوق فيها إلى وطنه منها القصيدة التي عارض فيها ابن زيدون ومطلعها:

يا نائحَ الطلح اشباهٌ عوادينا
نشجى لواديك ام ناسى لوادينا
ماذا تَقُصُّ علينا غيرَ انّ يدًا
قَصَّت جناحَكَ جالت في حَواشينا

ومنها قصيدة عارض فيها إحدى قصائد البحتري الشهيرة ومطلعها:

اختلاف النّهار واللّيل يُنسي
اذكرا لي الصِّبا وايامَ أُنْسي

عاش شوقي بعد أن عاد من منفاه عيشة مرفهة، وحظي بمال وفير كان ينفقه على وسائل راحته. وتم له التكريم باختياره أمير الشعراء العرب، وذلك في حفل

كبير شارك فيه ممثلون لشعراء البلدان العربية، وكتب عنه كثير من الأدباء كتبًا تحكي حياته وتُحلل قصائده ولا أظن أحدًا من الشعراء المحدثين نال ما ناله هذا الرجل من متابعة لأعماله، بحيث بقيت محفوظة لا ينال منها الدهر على تقلباته.

كان مولد أحمد شوقي بالقاهرة في سنة ١٨٦٨م، وبها توفّي في سنة ١٩٣٢م. عاش علمًا، ومات علمًا.

هنا يأتي الحديث عن قصيدتي البوصيري وأحمد شوقي، فهما الأصل الذي بنيت عليه فكرة هذا المقال، وسوف نرى أن الأول منهما قد ذكر موضعًا من المواضع الكويتية التي ترددت في الشعر العربي كثيرًا، وذلك ما ألمحنا إلى ذلك من قبل، والثاني عارض هذه القصيدة بقصيدة أخرى.

قد لا يكون البوصيري ممّن زار كاظمة، أو مر بها أو أقام فيها، فهي بعيدة عن سكنه، ولكنه ذكرها كما تولى ذكرها الشعراء من قبله، وقد أشرنا إلى ذلك منذ البداية، ولم يذكرها وحدها بل ذكر غيرها مواقع أخرى تبعد عنها كثيرًا مثل: إضم، وهذا واد بين المدينة ومكّة، وليس بمستغرب أن يرد إسما الموقعين متباعدين في قصيدة البوصيري، وقد تتردد أسماء مواقع عدة في إحدى القصائد، ولا يلزم ذلك أن تكون تلك المواقع متقاربة.

وفي مثل هذا يقول الدكتور زكي مبارك: «وذكر البوصيري لهذه المواطن، وشغفه بها، وحنينه إليها، ينافي مصريته، وكان له أن يَتَشوّق إلى أحبابه في بلبيس أو فاقوس، كما يتشوق بعض الناس إلى أحبابه في سنتريس وأسيوط، ولكن يظهر أن المغاني العربية كانت احتلّت رؤوس الشعراء، فكان من ذلك أن أكثروا من ذكر نجد وسلع وأروند، وإن لم يكن لهم بهذه المواطن هوى».

يقول البوصيري في قصيدته المشهورة باسم «البردة»:

أمن تذكُّر جيران بذي سَلَمٍ
مزجتَ دمعًا جرى من مُقلَةٍ بدمِ

أم هبَّتِ الريحُ من تلقاءِ كاظمةٍ
وأومَضَ البرقُ في الظلماءِ من إضم

فما لعينيكَ إن قلتَ اكففاهَمَتا
وما لقلبكَ إن قلتَ استفِقْ يهم

أيحسبُ الصَّبُّ أن الحبَّ مُنْكَتِمٌ
ما بينَ منسجمٍ منه وَمُضْطرمِ

لولا الهوى لم تُرِقْ دمعًا على طَلَلٍ
ولا أرِقْتَ لذكرِ البان والعلم

فكيف تُنكرُ حبًا بعدما شهدت
به عليكَ عدولُ الدَّمْعِ والسَّقَمِ

هذه هي بداية قصيدة البوصيري، والقصيدة كما قلنا طويلة كثيرة الأبيات متنوعة لفظًا ومعنًى، ولما كان اشتهارها باسم (البردة) فإن من الأفضل أن نورد هنا نصًا نقله صلاح الدين الصفدي صاحب كتاب الوافي بالوفيات عن الشاعر يبين فيه السبب في هذه التسمية فهو يقول: «قال البوصيري: كنت قد نظمت قصائد في مدح رسول الله ﷺ، منها ما كان اقترحه عليّ الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير ثم اتفق بعد ذلك أنه أصابني فالج أبطل نصفي ففكرت في عمل قصيدتي هذه البردة فعملتها واستشفعت به إلى الله عز وجل في أن يعافيني وكررت إنشادها وبكيت ودعوت وتوسلت به ونمت فرأيت النبي ﷺ فمسح على وجهي بيده الكريمة وألقى عليّ بردة فانتبهت ووجدت فيّ نهضة فخرجت من بيتي».

هذه الروح التي كتب بها البوصيري ما كتب وإن كانت تدلنا على سبب تسمية (البردة) على لسانه، فهي تدلنا على طيبة هذا الشاعر ومدى تعلقه بأمور دينه وبذكر الرسول الكريم ﷺ.

أما أمير الشعراء أحمد شوقي فإنه قال قصيدته نهج البردة التي سار فيها على ما سار عليه البوصيري من حيث الوزن والقافية، ومن حيث استيحاء السيرة النبوية الشريفة. وهو وإن قالها على هذا النحو إلا أن لها مناسبة دعته إلى إبداعها وهذه المناسبة هي حج الخديوي حاكم مصر الأسبق في سنة ١٢٢٧هـ (١٨١٢م) وقد قدمها الشاعر بكلمة صغيرة إلى الحاكم المصري ابتهاجًا بهذه المناسبة.

وكما قدمنا الأبيات الأولى من قصيدة البوصيري فإننا نقدم هنا الأبيات الأولى من قصيدة أحمد شوقي، وسوف يراها القارئ قريبة إلى نفسه لكثرة ما سمعها من كوكب الشرق فهي من القصائد الشهيرة التي غنّتها.

يقول شوقي:

ريمٌ على القاع بين البان والعَلَمِ
أحلَّ سفكَ دمي في الأشهُرِ الحُرُمِ

رَمَى القضاءُ بعيني جُؤذَرٍ أسدًا
يا ساكنَ القاع أدرك ساكنَ الأجم

لمّا رنا حدثتني النفسُ قائلةً
يا ويحَ جنبكَ بالسهم المصيبِ رُمي

جَحَدتُها وكتمتُ السَهم في كبدي
جُرحُ الأحبةِ عندي غير ذي الم

ومنها:

يـا لائـمـي فـي هـواهُ والـهـوى قَـدَرٌ
لـو شفَّـك الـوجـدُ لـم تـعـذل ولـم تَـلُـمِ

لـقـد انـلـتـكَ أُذنـاً غـيـرَ واعـيـةٍ
وربَّ مُـنـتَـصِـتٍ والـقـلـبُ فـي صَـمَـمِ

يـا نـاعـسَ الـطـرفِ لاذُقـتَ الـهـوى ابـدًا
أسـهـرتَ مُـضـنـاكَ فـي حـفـظِ الـهـوى فَـنَـمِ

ولن يكون لنا مجال للمقارنة بين القصيدتين فهما طويلتان ومعانيهما متنوعة. ولكننا نحيل على كتاب مهم في هذا المجال وهو الكتاب الذي ألفه الدكتور زكي مبارك، وأصدر الطبعة الأولى منه في اليوم الخامس عشر من شهر أكتوبر لسنة ١٩٣٦م. وهو كتاب «الموازنة بين الشعراء» وقد خَصَّصَهُ للحديث عن القصائد المتشابهة، ومنها هاتان القصيدتان. ولكنه نَوّع كثيرًا في الكتاب وأضاف إلى هاتين القصيدتين حديثه عن قصيدة قالها الشاعر أحمد سامي البارودي على غرار الأولى، وجاء مطلعها كما يلي:

يـا رائـدَ الـبـرق يَمِّـم دارةَ الـعـلـمِ
واحـدُ الـغـمـامَ إلـى حـيٍّ بـذي سَـلَـمِ

وكانت مقارنات زكي مبارك جيدة ومفيدة للقارئ، وكان يترسل في الحديث مقدمًا فوائد عديدة يُمكّن المرء من خلال الاطلاع عليه من فهم الشعر وتَمَثُّله. ولم يكتف بذلك بل ضم إليها قصائد متشابهة مما قاله البحتري وأبو فراس الحمداني وابن زيدون، وغيرهم من محدثي الشعراء. ولم يترك مجالًا يتيح له الموازنة بين الشعراء إلا طرقه، مما جعل كتابه هذا مليئًا بالفوائد، عامرًا بكل ما يعود بالنفع على قارئه، وما جعل له وزنًا بين الكتب المشابهة.

يلحظ القارئ أن السبب المباشر لكتابة هذا المقال هو ذكر البوصيري لكاظمة في بداية قصيدته (البردة)، وهذا هو الذي أدّى إلى الحديث عن شوقي والاستفادة من زكي مبارك، والتعريج على بعض الموضوعات التي لا غنى عن إيرادها ونحن نتحدث عن قصيدة مشهورة وشاعر مشهور، وكان شوقي فيما قدمناه قمة شعرية يملك بسببها كل الحق في أن يكون أميرًا لشعراء وهذا واضح في مختاراتنا التي قدمناها هنا.

كانت (البردة) تنشد في (الموالد) عند بعض مجالس الكويت القديمة، ويرددها الناس سعيدين بها، وقد نالت هنا من الاهتمام والشهرة ما نالته في وطن شاعرها وهي التي لفتت أنظار أبناء الكويت إلى الذكر القديم لكاظمة وبقي الأمر طويلًا إلى أن نهض الأستاذ أحمد البشر إلى جلاء هذا الأمر في عدد من المقالات في منتصف خمسينيات القرن الماضي.

****